الباب الأول
افريقيا قبل الغزو الاوروبي

- الفصل الأول : الاسلام وتطور العلاقات العربية الافريقية
- الفصل الثاني: الدولة الاسلامية ودورها السياسي والاقتصادي والحضاري.

الفصل الأول

الاسلام وتطور العلاقات العربية الافريقية

أولاً: الاتصالات العربية - الافريقية في العصور الوسطى:

ترتبط القارة الافريقية بعلاقات تاريخية موغلة في القدم مع العرب الذين يشكلون فيها الآن ثلثي الشعب العربي، الذي يعيش ثلثه الباقي في القارة الآسيوية. ويمكن أن نُرجع عمق هذه العلاقة إلى فرضيتين جغرافيتين.

الأولى – أن افريقيا وآسيا كانتا قارة واحدة، ولكن حدوث بعض الحركات الأرضية أدى إلى حدوث انكسار البحر الأحمر الذي فصل بين القارتين فصلاً غير كاملٍ.

والثانية – أن جزيرة العرب، وهي موطن العرب الأصلي، كانت مستودعاً بشرياً هائلاً يفيض بالهجرات البشرية على مدى العصور والأجيال بسبب ما تعرضت له الجزيرة العربية من جفاف اضطر سكانها إلى الهجرة للمناطق المجاورة، وفي مقدمتها القارة الافريقية.

وعليه يمكن أن نُرجع الاتصالات العربية –الافريقية إلى بداية ظهور النشاط البشري، وظهور أول حضارتين هما حضارة وادي الرافدين وحضارة وادي النيل. فقد استطاع المصريون القدماء من الوصول إلى بلاد الشام، في الوقت الذي استطاع العراقيون من الوصول أحياناً إلى مصر، وامتد نشاط الفينيقيين إلى شواطىء شمال افريقيا حيث اتخذوا من قرطاجة مركزاً لهم، بحيث ارتبط اسم افريقيا –في البداية– باسم قرطاجة وما حولها.

واستعمل البيزنطيون لفظ افريقيا للدلالة على المنطقة التي تمتد من طرابلس وبرقة شرقاً إلى طنجة غرباً، وهو نفس المدلول الذي استخدمه العرب أول الأمر للإشارة إلى افريقيا، و «حد افريقيا طولها من برقة شرقاً إلى طنجة الخضراء غرباً، وعرضها من البحر إلى الرمال التي في أول بلاد السودان»، وأن قرطاجة هي مركز هذه الولاية حيث هي مستقر سلطان افريقيا. ولكن العرب لم يستعملوا لفظ افريقيا وحده وإنما أضافوا إليه لفظ المغرب، فإن «أهل مصر يسمون ما عن أيمانهم إذا استقبلوا الجنوب بلاد المغرب، ولذلك سميت بلاد افريقيا وما وراءها بلاد المغرب، يعني أنها فرقت بين مصر والمغرب». ومهما يكن من أمر فقد غلب لفظ المغرب على شمال افريقيا –في القرون المتأخرة– على لفظ افريقيا الذي أتسع ليشمل القارة كلها.

ولتحديد طرق الاتصال بين العرب وافريقيا نقول أنها تتمثل في:

1- طريق سيناء:

بالرغم من طبيعة سيناء الصحراوية، إلا أنها كانت –ومنذ القدم– الطريق الأساسي للاتصال بين قارتي آسيا وافريقيا، فالتفاعل الحضاري، والاحتكاك العسكري، والتواصل التجاري، كانت سيناء طريقه، فالطريق من سيناء تنتهي في صميم البلاد العربية، تنتهي إلى الحجاز في الشمال وإلى اليمن في الجنوب. وكانت مهمة هذه الطرق حمل عوامل التأثر والتأثير، فقرّب هذا الطريق مصر أمام التجارة والتجار العرب، الذين كانوا على اطلاع بأوضاع مصر الاقتصادية والسياسية، وليس غريباً أن يكون من بين التجار العرب الذين زاروا مصر قبل الإسلام عمرو بن العاص، قائد الجيش العربي الإسلامي، الذي وصل الاسكندرية واطلع على احوالها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

كانت أكبر الهجرات العربية عن طريق سيناء، هي الهجرة التي حدثت في أوائل القرن الأول الهجري/أوائل القرن السابع الميلادي، لنشر رسالة الإسلام. فبعد تحرير بلاد الشام من السيطرة البيزنطية وجدت القيادة العربية أن ترك مصر – وهي ولاية بيزنطية تمد بيزنطة بالميرة والجند– خطراً على حياة الدولة الإسلامية الناشئة. وكان تنبه عمرو بن العاص إلى ذلك والتفاته إليه، في جملته أو في تفصيله، عبقرية قيادية رائعة، فالدولة العربية الإسلامية مضطرة لتجنب هذا الخطر ومواجهته، ولذلك كان تحريض عمرو بن العاص للخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) على فتحها بقوله:

«إن فتحها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم، وهي أكثر الأرض أموالاً»

وكان وراء فتح مصر ضرورات حربية تريد حماية ظهور المسلمين في بلاد الشام وتعقب فلول البيزنطيين الهاربين إلى مصر، إضافة إلى الهدف المركزي في نشر رسالة السماء.

لا نريد أن ندخل هنا في تفاصيل الفتح العربي الإسلامي لمصر، وإنما نشير بأن الخطوة الأولى كانت فتح العريش في ديسمبر عام /639م/ 9 هـ، ومنها الانطلاق نحو السويس، ففتحوا الفرما – التي تقع شرقي بور سعيد– في أواسط يناير 646م/9 هـ التي كانت مفتاح مصر من ناحية الشرق ومدخلها، فضمن المسلمون لأنفسهم قاعدة يستطيعون التقدم منها إن أتيح لهم التقدم، ويتراجعون إليها لو أُكرهوا على التراجع، ويتلقون عن طريقها الإمداد حيث يمدهم الخليفة.

انطلق المسلمون إلى مناطق مصر الأخرى، بلبيس وبابليون والفيوم والاسكندرية التي استسلمت دون قتال في 8 نوفمبر 641، وبهذا وضع المسلمون يدهم على العاصمة الأولى لمصر، والعاصمة الثانية للامبراطورية البيزنطية.

وكان فتح مصر قفزة بالمسلمين نحو القارة الجديدة، نحو افريقيا، فقد ربطت مصر بين العرب وافريقيا ووسعت من سيطرتهم على البحر المتوسط، وقد أسس عمرو بن العاص أول مدينة عربية إسلامية في شمال افريقيا، وهي الفسطاط التي تقع إلى جانب بابليون في موقع يسهل الاتصال عن طريق سيناء مع بلاد الشام ومع الجزيرة العربية حيث مركز الدولة ومصدر القوة العربية المركزية، لتكون قاعدة متقدمة للفتوحات العربية في شمال افريقيا.

واصل المسلمون تقدمهم غرباً، ومما سهل للعرب التقدم ما وجدوه من تشابه في الطبيعة الصحراوية، ومظاهر حياة القبائل البدوية، فالبربر السكان الأصليون في هذه المناطق كانوا أشبه بالعرب في نظمهم الاجتماعية وطرز معيشتهم، وطبيعة الأرض التي يعيشون فيها، فسهل انتشار الإسلام وغلبة العربية.

كان فتح برقة وطرابلس المقدمة للانسياح في افريقيا، وكان نجاح المسلمين في ذلك مغرياً لهم على التقدم، فقد استأذن عمرو بن العاص الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) في ذلك وكتب إليه يقول: «إن الله فتح علينا طرابلس، وليس بينها وبين افريقية إلا تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل». وقد بدأ التمهيد لفتح افريقيا (تونس) بالاستيلاء على المناطق الداخلية في برقة وطرابلس، فاستولى المسلمون على ودّان وفزان التي تولى أمرها عقبة بن نافع الفهري.

وفي عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رضي الله عنه) استأذن عبدالله بن سعد بن ابي سرح الذي وليّ افريقيا الاستمرار بالفتوح فأذن له الخليفة بعد المشورة، وقد حدثت سلسلة من الغارات إلى أن استطاع المسلمون من دخول ولاية افريقيا، واعقب ذلك اتخاذ القيروان قاعدة عسكرية بعد أن بعُدَ مركز العمليات العسكرية عن مدينة الفسطاط بمصر، فقد كان بُعدها يذهب بقواهم ويستنفذ جزءاً كبيراً من جهودهم. وتبع ذلك قيام الخليفة الأموي معاوية بفصل مصر عن افريقيا إدارياً، ففصل بين الولايتين، وكان معنى ذلك أنه فصل بين الإمارة في مصر والقيادة في افريقيا.

لقد شهدت فتوح المغرب، سلسلة متصلة من الغارات والغزوات، ومقاومة عنيفة من الروم استمرت خمسين عاماً، وقد جاء موسى بن نصير بعد هذه الحروب، لذلك بدأ عمله يسيراً سهلاً فتمكن من إتمام فتح المغرب، فأصبحت شمال افريقيا برمتها قاعدة أساسية للعرب المسلمين لنشر الإسلام في مناطق افريقيا الأخرى والقارة الأوروبية.

2- طريق البحر الأحمر:

يعد البحر الأحمر بحراً داخلياً ضيقاً هادئاً سهل العبور في كل جزء من أجزائه، وبخاصة مضيق باب المندب. وكانت طبيعة البحر الأحمر والقرن الافريقي تساعد على الملاحة السهلة المتيسرة طوال العام بين شاطئيه الشرقي والغربي، فقامت العلاقات بين ساحلي البحر، وبين الجزيرة العربية والبلاد الافريقية الواقعة على الساحل الغربي، وهذا أمر طبيعي جداً منذ أقدم الأزمنة. وقد عبر العديد من العرب إلى الساحل الشرق لأفريقيا، واستقرت الهجرات العربية الأولى على الشريط الساحلي الصحراوي من ارتيريا وصوماليا، ثم اخذت في الانتشار تدريجياً شمالاً وجنوباً على الشريط الساحلي، مما أدى إلى ظهور جيل من السكان على الجانب الافريقي امتزج فيه الدم العربي بالدم الأفريقي، حيث تزاوج المهاجرون مع أهل البلاد.

ويعتقد بعض العلماء أن سكان الحبشة –حبشت– كانوا في الأصل جماعات عربية يمنية كانت تعيش على ساحل شبه الجزيرة العربية الجنوبي، ثم هاجرت غرباً وعبرت مضيق باب المندب واستوطنت المناطق المقابلة لليمن على ساحل البحر الأحمر الغربي، وذلك قبل القرن الرابع قبل الميلاد. وتمكن هؤلاء العرب الجنوبيين من تأسيس مستعمرة تجارية على الشاطىء الارتيري، ثم ما لبثوا أن مدوا نفوذهم إلى الهضبة الاثيوبية، وأخذوا ينشرون بذور الحضارة العربية، وقد نجحوا في القرن الأول الميلادي من تأسيس مملكة أكسوم الزاهرة التي دلت على أن مؤسسيها من أرقى العناصر جميعاً، وهم حملة الحضارة إلى هذه المنطقة. وخلال القرون الثمانية التي عاشتها دولة أكسوم كانت العلاقات الودية تارة والعدوانية تارة أخرى قائمة بينها وبين اليمن.

استمرت العلاقات –السلمية والحربية– بين جزيرة العرب والحبشة، وكانت حملة أبرهة الحبشي على اليمن الذي أعلن نفسه حاكماً على حمير، ونقش عند ترميم سد مأرب اسمه وبأنه مفوض ملك الجعز (الحبشة) وملك سبأ وذي ريدان وحضرموت واليمن وأعرابها في

الهضاب. وقد اشتهر بحملته على الكعبة، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم –سورة الفيل– وانتهت بالفشل، وقد سمي ذلك العام بعام الفيل 570م. وهذا دليل على التواصل بين الافارقة والجزيرة العربية.

وبعد ظهور الإسلام، وتعرض المسلمين للاضطهاد في بداية الدعوة الإسلامية، أمر الرسول الكريم صحابته بالهجرة إلى الحبشة، وكان عدد المهاجرين الأوائل في الهجرة الأولى لا يزيد على أحد عشر مسلماً، ومنهم عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ومعهم بعض زوجاتهم. أما الهجرة الثانية فكان فيها جعفر بن أبي طالب، وحمل المهاجرون العقيدة الإسلامية الجديدة التي وجدت لها أرضاً خصبة للانتشار في الحبشة والمناطق المجاورة لها، وزاد ذلك عن طريق التجارة والتجار والتزاوج بين العرب والمسلمين المهاجرين والنازلين بينهم. وكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة تتسم بالهدوء التام، وتتميز بالطابع الروحي والمعنوي، لأنها هجرة إلى الله ورسوله قصد منها نشر العقيدة الإسلامية الجديدة ليعرف المتعقلون من جيران مكة خصائص وفضائل الدين العظيم.

استمر التواصل عبر هذا الطريق في مختلف مراحل الدولة العربية الإسلامية، وزادت أواصر العلاقات والمصاهرة بين العرب والافارقة عن هذا الطريق.

3- طريق الصحراء الليبية:

تمتعت ليبيا بموقع استراتيجي بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه من جهة، وبين البحر المتوسط والدول الأوروبية شمالاً وداخلية القارة عن طريق الصحراء من جهة أخرى. ولم تكن الصحراء الكبرى تشكل عائقاً بوجه التوسع العربي الإسلامي إلى جنوبها، فقد عرف العرب الصحراء في جزيرتهم وامتلكوا أدوات اقتحامها، وكان الجمل العربي في طليعة هذه الأدوات، وقد دخل الجمل إلى شمال افريقيا في فترة مبكرة تعود إلى حوالي القرن الرابع الميلادي. وكان هذا الحيوان سبباً في إحداث علاقة تاريخية كبرى وهي عبور الصحراء. فبعد فتح برقة وطرابلس (ليبيا) تدفقت على هذه المنطقة موجات العرب كالسيل دون انقطاع، وأخذ نفوذ العرب يقوى وعددهم يتكاثر، وامتزج الدم العربي بدماء أهل البلاد.

بعد أن توطدت أقدام العرب المسلمين في ليبيا واستقروا بها حتى بدأوا جهودهم في نشر الإسلام وفي تعليم اللغة العربية، وفي تعريب البلاد وتحويلها شيئاً فشيئاً إلى التقاليد العربية

الإسلامية. وازدهرت الحياة الاقتصادية، وخاصة التجارية، التي أسهمت كثيراً في نشر الإسلام في المناطق الواقعة جنوب ليبيا عبر الصحراء. فقد أدى التجار العرب المسلمين دوراً مهماً في ذلك بعد أن أصبحت المدن الساحلية الليبية همزة وصل بين دواخل ليبيا وما وراء الصحراء الكبرى، من ناحية، وعالم ما وراء البحر المتوسط بحوضيه الشرقي والغربي من ناحية أخرى، فمن الشمال تأتي قوافل الجمال التي ينظمها التجار في شمال افريقيا، وهي تنقل السلع التي يحتاج إليها أهالي السودان: الملابس الفاخرة والفلفل والسيوف وغيرها، اضافة إلى السلعة الضرورية للحياة، وهي الملح، الذي يستخرج من أعماق الصحراء، وترجع من تمبكتو حاملة الذهب. وما كان التجار يجلبون معهم سلعاً مادية فقط، بل كانوا ينقلون معهم أيضاً المعرفة والثقافة عن عالم أوسع هو عالم الإسلام، ومفاهيم جديدة عن الدين والقانون والحكومة، وأشكالاً جديدة من طرق التعلم، وكلمات جديدة تغني اللغات المحلية، وأساليب جديدة من الفن المعماري، ومحصولات جديدة، وحرفاً ومهارات متطورة.

كانت هناك العديد من الطرق التي تنطلق من ليبيا وتخترق الصحراء الكبرى، منها طريق طرابلس إلى غدامس وإلى غات وإيري إلى ممالك الهوسا الغنية. والثاني من طرابلس ولبدة إلى فزان وكوار وبرنو وبحيرة تشاد، والثالث الممتد من برقة إلى الكفرة ثم إلى وداي، والرابع طريق زويلة إلى سبها إلى فزان إلى بلما وكانم وتشاد. واتصلت هذه الطرق وغيرها من تونس وتلمسان بالمركز التجاري الرئيسي في تمبكتو. وكانت هذه الطرق تمثل شرياناً من شرايين الحياة والحضارة في القارة الافريقية، فقد أسهمت التجارة في ظهور بعض المدن التجارية التي تدين بانتعاشها إلى تجارة القوافل عبر الصحراء، فمدينة تمبكتو تدين بانتعاشها إلى الذهب والملح. كما كانت مدينة توات المركز الرئيسي للتبادل التجاري في غرب افريقيا، بين القوافل العربية القادمة من شمال افريقيا حاملة القمح والملح والملابس، وبين القوافل القادمة من تمبكتو حاملة الذهب، بالاضافة إلى القوافل القادمة إليها من مصر.

لقد نقلت التجارة والتجار العرب عن طريق الصحراء الليبية الدين الإسلامي واللغة العربية إلى مناطق السودان (تشاد والنيجر ومالي والسنغال) وظهر تأثيرهم واضحاً في تحول أهالي هذه المناطق إلى الدين الإسلامي والحضارة العربية التي أدت إلى نشوء الإمارات والممالك الإسلامية في تلك الربوع.

4- طريق المحيط الهندي إلى شرق افريقيا ووسطها:

يعد هذا الطريق من أهم طرق الاتصال بين العرب والافارقة، خاصة عرب الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية، وذلك لعاملين أساسيين هما:

1- نشأة العرب البحرية: فقد نشأوا في بيئة بحرية مثالية في جنوب وجنوب شرق الجزيرة العربية (حضرموت وعمان) فكانوا بحارة مهرة ركبوا البحر منذ أمد بعيد، خاصة وأن ظهير السواحل العربية منطقة صحراوية قليلة الموارد، فكان طبيعياً أن يهاجر العرب إلى شرق افريقيا بمجموعات صغيرة، انتشرت في البداية في بعض الجزر الساحلية مثل مافيا وزنجبار وبمبا، وفي المراكزالساحلية مثل سفالة ومالندي كلوة وممباسة ودار السلام. واستطاعت هذه المجموعات أن تطبع مناطق واسعة من شرق افريقيا بلغتها وديانتها، وأن تندمج مع السكان الوطنيين.

2- عامل جغرافي يتعلق بنظام هبوب الرياح على سواحل افريقيا الشرقية: ففي شهر ديسمبر تهب الرياح التجارية من الشمال والشمال الشرقي، ويستمر هبوبها بانتظام حتى نهاية شهر فبراير. ومن ابريل إلى سبتمبر تنعكس المسألة فتهب رياح شديدة من الجنوب الغربي. ولما كان الساحل الشرقي لأفريقيا يتبع خطاً مستقيماً تقريبياً متجهاً من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، من زنجبار إلى مدخل خليج عدن ومن ثم إلى خليج عمان، فقد أصبح التجار الذين يبدأون رحلتهم في سفنهم الشراعية من الشاطىء العربي في الشتاء يستعينون بقوة الرياح المؤاتية في سفرهم جنوباً صوب الساحل الافريقي، بينما في أثناء عودتهم لأوطانهم في الربيع –بعد أن يكونوا قد قضوا بضعة شهور في التجارة– يجدون أيضاً الرياح مؤاتية للاتجاه صوب الوطن الأصلي، وبمضي الزمن أصبح للتجار العرب خبرة تامة بمواقيت الرياح واتجاهاتها، وأصبحت رحلاتهم من سواحل الخليج العربي إلى الساحل الافريقي، ومدة استقرارهم بهذا الساحل، تنظم تنظيماً دقيقاً تبعاً لمواسم الرياح المنتظمة المعروفة لديهم.

كانت معرفة العرب بسواحل افريقيا الشرقية، عن طريق المحيط الهندي، تعود إلى ما قبل التاريخ، فتذكر المصادر أن الاتصال الحضاري كان قائماً بين بلاد الرافدين (العراق) وشرق افريقيا منذ عهد سرجون الآكدي حيث عثر على نقوش سومرية في ساحل افريقيا الشرقي

تدل على وصول أهالي بلاد الرافدين إلى هذه المناطق. ويؤكد ذلك وجود بعض العادات والتقاليد المتشابهة في كل من شرق افريقيا وبلاد الرافدين، مثل اتخاذ القرن رمز القوة والجبروت. وقد أشار الرحالة الإغريقي مؤلف كتاب «الكشاف البحري» من القرن الأول إلى النشاط العربي في ساحل افريقيا الشرقي وكثرة السفن العربية، وأُعجب من قدرة العرب على العيش بين الأهالي والاختلاط بهم، والتزاوج معهم فاختلطت الأنساب وساد الوئام بين العرب وسكان الساحل. وكانت السفن العربية تحمل الخناجر والرماح والزجاج، وتقلع من الساحل الشرقي تحمل العاج وجلود السلحفاة وغيرها من البضائع.

يرجع الاستقرار العربي الملحوظ في الساحل الشرقي إلى القرن الثامن الميلادي، وبمرور الزمن زاد عدد الوافدين للاستقرار، وزادت العلاقات مع الداخل والتوغل فيه، وتشعبت المصالح، وأصبحت للعرب إمارات عربية لها اتصال بالجماعات التجارية العربية في الجزيرة العربية نفسها، وبالتجار العرب في القارة الافريقية. وقد أسهمت الأوضاع السياسية في الدولة العربية –في العهدين الأموي والعباسي– في زيادة عدد المهاجرين إلى سواحل افريقية الشرقية، فحين اشتداد النزاع بين أحزاب المسلمين كانت الأحزاب المغلوبة على أمرها تهاجر إلى شرق افريقيا وتتخذ هذه الجهات موطناً لها.

وكانت أولى الهجرات الجماعية في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان خلال الفترة بين (694م – 740م) بقيادة الأخوين سليمان وسعيد أبناء عباد الجلندي من قبيلة الأزد، وهما من شيوخ العرب الذين حكموا عمان في أيام الدولة الأموية، وثاروا في وجه الخليفة عبد الملك بن مروان إلا أنهم فشلوا وتغلبت عليهم قوات الحجاج بن يوسف الثقفي عام 694م، فهرب سعيد وسليمان مع أنصارهم إلى الساحل الافريقي، ويحتمل أن يكونا قد نزلا في بات في أرخبيل لامو، أو مدينة حدابو التي أسسوها شمالي منبسه. وتبع هذه الهجرة هجرات عربية أخرى استقرت في أماكن متفرقة على الساحل الشرقي لأفريقيا، فبعد فشل ثورة زيد بن علي بن الامام الحسين، في عهد هشام بن عبد الملك، وإعدامه عام 122هـ/740م تفرق أتباعه فاستقر قسم منهم في اليمن، ومن هؤلاء من هاجر إلى ساحل افريقيا الشرقية، واستقروا عند ساحل بنادر بالقرب من موقع مقديشو. كما أن كثيراً من أهل الحجاز، وعلى الأخص من أهل مكة والمدينة، قد هاجر إلى الساحل الشرقي. وحدثت هجرة الأخوة السبعة من قبيلة الحارث